

معوقات التغيير الاجتماعي

قراءة قرآنية

■ علي علي آل موسى*

توطئة

منذ قديم الزمن كان من بين البشر من يعتقد أنّ الثبات وعدم التغيّر هو الصورة الفعلية للوجود والمجتمع، ومن بينهم أيضاً من اقتنع أنّ التغيّر والتحول هو الصورة الفعلية الكامنة في الفرد والجماعة والمجتمع.

ومن الواقفين على الطرف الأول الفيلسوف اليوناني بارمنيدس الذي ذهب إلى أنّ «الوجود هو الحقيقة الأزلية، وأنّ الحقيقة كائن ثابت غير متغيّر، أما التغيّر فهو عبارة عن وهم من الأوهام»^(١).

ومن الواقفين على الطرف المقابل الفيلسوف اليوناني هيرقليطس صاحب المقولة الشهيرة: «إنّ من المستحيل على الشخص أن يلج النهر مرتين»^(٢)، فأنت لست أنت، والنهر ليس النهر!^١ إشارة إلى التغيّر الكامن في البشر والوجود.

ويرى علم الاجتماع المعاصر أنّ التغيّر سمة فعلية في المجتمعات ترتقي إلى حدّ كونها ظاهرة شائعة لا تقبل الشك والريب، وغدا موضوع التغيّر الاجتماعي أحد أهم الموضوعات

* عالم دين، كاتب وباحث أكاديمي، السعودية.

(١) الدكتور الفاروق زكي يونس، الخدمة الاجتماعية والتغيّر الاجتماعي. ط٢. القاهرة/ مصر: عالم الكتب، دت/ ٣٣٤.

(٢) المصدر/ ٣٣٤.

في علم الاجتماع الذي راح يصبّ كثيراً من دراساته لتأمل هذه الظاهرة ودراساتها^(٣). وتواشجت علوم كثيرة - كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ - لتثبت أنّ التغيّر ظاهرة اجتماعية (Social phenomenon)، جليلة.. راسخة رسوخ قدم الإنسان في أرض التاريخ وعمق الزمن، فقد مرت البشرية بمراحل ارتقت فيها من النطق إلى اكتشاف النار، فاستئناس الحيوان، فالزراعة، ثم التنظيم الاجتماعي، فالأخلاق، فالآلات، فالصناعة، فالعلوم، فالتربية، فالكتابة. وانتقلت من المجتمع البدائي إلى المجتمع المتحضر والمتمدن. والتقطت عدسة الشمس مجتمعات كثيرة مرت على المعمورة، من لدن المجتمع الصغير الذي مثله آدم وذريته الأولى، مروراً بمجتمع نوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، وختاماً بالبشرية المعاصرة، وانتصبت في وجه قامته الزمن مجتمعات كثيرة وحضارات عديدة كالمجتمع البابلي والصيني والهندي والفارسي والفرعوني واليوناني والروماني وغيرهم، ونمت مجتمعات كثيرة على بعضها نمواً رأسياً..

وهكذا.. فالمجتمع متغيّر بطبيعته.

والقرآن الكريم يؤمن بأنّ الاختلاف سمة أصيلة في المجتمع البشري: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٤).

وتتفرّع من سمة الاختلاف سمة التدافع والصراع والتنافس بين الأشخاص والمجتمعات والثقافات والقيم المختلفة، والصدام بين بعضها والبعض الآخر، وفناء مجتمعات على يد أخرى تحلّ محلها: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٥)، ﴿وَأَوْزَتْكُمْ أَرْضُهُمْ وِدْيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطُؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(٦).

وهذا التدافع يُنشئ سمة أخرى هي سمة التغيّر، فالمجتمعات تتغيّر، والأيام تُتداول، والحكم ينتقل، فيوماً حكمت الإمبراطورية الفارسية، ويوماً آخر الحضارة الإسلامية (الخلافة، الأمويون، العباسيون، الدول المتتابعة، ومنها الخلافة العثمانية)، وفي يوم ظهر اليونان، وآخر الرومان، وثالث الحكم الكنسي، ورابع بريطانيا العظمى التي كانت لا تغيب عنها الشمس، ثم خذلتها الشمس وأسلمتها للمغيب!!، وخامس الاتحاد السوفيتي الذي مزقته عواصف التغيّر كما تمرّق الرياح سحابة صيف هشة، واليوم تتربع على عرش القوة والجبروت الولايات المتحدة الأمريكية: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ

(٣) المصدر/ ٣٣٥.

(٤) سورة هود/ ١١٨ - ١١٩.

(٥) سورة البقرة/ ٢٥١.

(٦) سورة الأحزاب/ ٢٧.

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٧﴾، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٨).

التغير الاجتماعي: وقفة مفهومية

قبل أن نلج إلى ردهة البحث نريد أن نقف وقفة إجمالية عند مصطلح (التغير)؛ لتعرّف على مدلوله اللغوي والاصطلاحي.

١- المدلول اللغوي:

ترد مادة (التغير) في المعاجم العربية بمعنى التحول والتبدل، والانتقال من حالة إلى حالة أخرى.

يقول ابن منظور [٦٣٠ - ٧١١هـ]، [١٢٣٢ - ١٣١١م]: «تغيّر الشيء عن حاله: تحوّل. وغيّره: حوله وبدّله، كأنّه جعله غير ما كان، وفي التنزيل العزيز: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نُّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٩)، قال ثعلب: معناه حتى يبدلوا ما أمرهم الله،، وغيّر الدهر: أحواله المتغيرة» (١٠).

ويقول الفيروزآبادي [٧٢٩ - ٨١٧هـ]، [١٣٢٩ - ١٤١٥م]: «تغيّر عن حاله: تحوّل. وغيّره: جعله غير ما كان، وحوّله وبدّله» (١١).

فالتغيّر «يشير إلى الاختلاف الكمي أو الكيفي ما بين الحالة الجديدة والحالة القديمة، أو اختلاف الشيء عما كان عليه، في خلال فترة محددة من الزمن» (١٢).

أما (الاجتماعي) فهي نسبة إلى (الاجتماع)، أي الشيء المنتسب إلى المجتمع. ومن ثمّ فـ(التغير الاجتماعي) هو التحول والتبدل المتصل بالمجتمع أو الحاصل فيه.

٢- المدلول الاصطلاحي:

من الناحية الاصطلاحية هناك الكثير من التعريفات المقدمة على بساط البحث لمدلول

(٧) سورة طه / ١٢٨.

(٨) سورة آل عمران / ١٤٠.

(٩) سورة الأنفال / ٥٣.

(١٠) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م). لسان العرب. تنسيق: علي شيري. ط١. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ١٠ / ١٥٥ مادة (غير).

(١١) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ / ١٤١٥م). القاموس المحيط. ط١. بيروت / لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ٢ / ١٥١ مادة (غير).

(١٢) الدكتور شائم بن لافي الهمزاني، التغير الاجتماعي في منطقة حائل: دراسة علمية، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م. الإنترنت، موقع: (المعرفة): (WWW.Marefa.Org).

(التغيير الاجتماعي) (Social change)، نقتصر منها:

أ - هو « التغيير الذي يحدث داخل المجتمع أو التحول الذي يطرأ على أي من جوانب المجتمع خلال فترة زمنية محددة»^(١٣).

ب- هو « كلّ تحول يقع في التنظيم الاجتماعي، سواء في بنائه أو في وظائفه خلال فترة زمنية معيّنة، والتغيير الاجتماعي على هذا النحو ينصبّ على كلّ تغيير يقع في التركيب السكاني للمجتمع، أو في بنائه الطبقي، أو نظمه الاجتماعية، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية، أو في القيم والمعايير التي تؤثر في سلوك الأفراد والتي تحدد مكاناتهم وأدوارهم في مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينتمون إليها»^(١٤).

ج- هو « كلّ تحول يطرأ على البناء الاجتماعي خلال فترة من الزمن، فيحدث تغيير في الوظائف والأدوار والقيم والأعراف وأنماط العلاقات السائدة في المجتمع»^(١٥).

د - هو « كلّ ما يطرأ على المجتمع في سياق الزمن على الأدوار والمؤسسات والأنظمة التي تحتوي على البناء الاجتماعي من حيث النشأة والنمو والاندثار»^(١٦).

هـ- « هو الانتقال من نظام اجتماعي إلى آخر»^(١٧).

التغيير الاجتماعي والمصطلحات الأخرى

من التعميمات السابقة الواردة في تعريف (التغيير الاجتماعي) نصل إلى أنه كلّ تحول في البناء الاجتماعي يحصل في فترة من الزمن، سواء أكان تحولاً كلياً أم جزئياً، إيجابياً أم سلبياً، مقصوداً أم تلقائياً، مخططاً أم عشوائياً، سريعاً فجائياً أم بطيئاً تدريجياً، زيادة أم نقصاناً، ارتقاء أم انحداراً، علواً أم هبوطاً، تقدماً أم تأخراً..

وبعبارة مختصرة هو أيّ نحو من التحول يحصل في بناء المجتمع. وهذا يعني أنّ (التغيير الاجتماعي) مصطلح لا يمدّ الظلال ذاتها التي تمدها مصطلحات أخرى مثل: التقدم، التطور، التحديث، التحضر، النمو، التنمية، الثورة، الإصلاح، التخلف، التراجع، التردّي.

(١٣) المصدر.

(١٤) الدكتور أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. ط ٢. بيروت/ لبنان: مكتبة لبنان، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م/ ٣٨٢.

(١٥) الدكتور إبراهيم بن محمد آل عبد الله، والدكتور عبد الله بن حمد الدليمي، علم الاجتماع للصف الثالث الثانوي. قسم العلوم الشرعية والعربية (بنين). المملكة العربية السعودية، ١٤٣٠. ١٤٣١هـ/ ٢٠٠٩م - ٢٠١٠م، ص ٩١.

(١٦) الخدمة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي/ ٢٤٣.

(١٧) دون كاتب (تغير اجتماعي)، الإنترنت، موقع: ويكيبيديا (الموسوعة الحرة).

١- التقدم الاجتماعي (Social Progress):

التقدم الاجتماعي هو تغيّر المجتمع من حالة إلى حالة أفضل سواء في الجوانب المادية أو المعنوية، ويشير إلى عملية مستمرة بمقتضاها ينتقل المجتمع الإنساني من حالة إلى حالة أفضل، أو يسير في اتجاه مرغوب^(١٨).

« ويُعرّف بأنه العملية التي تأخذ شكلاً محدداً واتجاهاً واحداً مستقيماً يتضمن توجيهاً واعياً مخططاً ومقصوداً لتوجيه عملية التغيّر نحو الأمام؛ بهدف تحقيق بعض الأهداف المرسومة والمنشودة المقبولة، أو الأهداف الموضوعية التي تنشأ خيراً أو تنتهي إلى نفع^(١٩)، كما يشير إلى التحسّن الإيجابي المستمر الصاعد نحو الأمام، وينطوي على مراحل ارتقائية، أي أنّ كلّ مرحلة تالية أفضل من سابقتها من حيث الثقافة والقدرة الإنتاجية والسيطرة على الطبيعة، بينما (التغيّر الاجتماعي) قد يكون إيجابياً أو سلبياً، أي تقدماً وازدهاراً أو تخلفاً وتأخراً ونكوصاً^(٢٠).

٢- التطور الاجتماعي (Social Evolution):

التطور يعني النمو والتقدم المتدرّج البطيء من الناحية الكمية أو الكيفية وفقاً لمراحل محددة ومتوقعة (دون طفرات)، ويؤدي إلى تحولات منتظمة ومتلاحقة ومتراصة، فهو « العملية التي بموجبها تحقق المجتمعات الإنسانية نمواً مستمراً مروراً بمراحل متلاحقة مترابطة^(٢١)، بينما التغيّر الاجتماعي قد يكون تدريجياً مرحلياً بطيئاً هادئاً، وقد يكون ثورياً انقلابياً فجائياً طفرئاً سريعاً شاملاً عنيفاً، وقد يكون تغييراً مخططاً (بطيئاً أو سريعاً) أو تلقائياً، بحسب المنهج التغييري الذي يسير عليه ويتملاه.

و« إذا كان مفهوم التغيّر يشير إلى أيّ تحول أو تعديل يطرأ على أساليب الناس في التعامل وعلى المؤسسات الاجتماعية والبناء الاجتماعي، فإنّ مفهوم التطور يقوم على أساس العلاقة بين عامل الزمن وبين نشأة أنواع أو فصائل أكثر تركيباً وأشد تنوعاً أو اختلافاً، إنّ الأكثر تطوراً لا بدّ أن يظهر متأخراً عن الأقل تطوراً نتيجة للتغيّرات التي تطرأ عليه^(٢٢).

وهذا يعني أنّ التطور حالة من حالات التغيّر.

(١٨) الخدمة الاجتماعية والتغيّر الاجتماعي / ٢٥٠، ٢٥٢.

(١٩) التغير الاجتماعي في منطقة حائل، الإنترنت، موقع: (المعرفة): (WWW.Marefa.Org)

(٢٠) المصدر.

(٢١) المصدر.

(٢٢) الخدمة الاجتماعية والتغيّر الاجتماعي / ٢٤٩ - ٢٥٠.

٣- التحديث (Modernization):

التحديث هو «استبدال الأسلوب التقني التقليدي وما يرتبط به من أنماط تتصل بحياة الأشخاص أو الجماعات أو المجتمعات، وذلك بأسلوب أكثر حداثة ومعاصرة»^(٢٣)، بينما التغيير أعم من ذلك، ويشمل الأخذ بالأسلوب التقني الحديث، أو العكوف على الأسلوب التقني القديم، أو النكوص إلى الأسلوب التقني القديم، فهو مفهوم عام يشمل التحديث والتقليد والتبعية وغير ذلك..^(٢٤).

٤- التحضر (Urbanization):

يشير مفهوم التحضر «إلى عملية من عمليات التغيير الاجتماعي، وهي انتقال الريفيين إلى المدن، واكتسابهم تدريجيًا القيم الحضرية وما يرتبط بها من أنماط السلوك الحضري إلى أن تنتهي هذه العملية إلى ما يُسمى بـ(التكثيف الاجتماعي)»^(٢٥). ويشير مفهوم (الحضرية) «إلى اكتساب الناس - وخاصة في الريف - لأساليب الحضر دون الانتقال إلى المدن»^(٢٦)، أي التحول القيمي والثقافي دون التحول المكاني الجغرافي. أما التغيير الاجتماعي فهو يشمل انتقال الريفيين إلى المدن والعكس، واكتساب الناس لأساليب الحضر والعكس، «وهكذا، فالتحضر يصف جزءاً من عملية التغيير الاجتماعي»^(٢٧).

٥- النمو الاجتماعي (Social Growth):

يشير مفهوم (النمو) إلى الزيادة في جانب واحد من جوانب الحياة، ويتصف بالثبات المستمر نسبياً، ويكون بطيئاً وتدرجياً، ويشير إلى الجوانب الكمية، ويتعلق غالباً بالجانب المادي من المجتمع، ويسير في خط مستقيم نحو الأمام (الزيادة)، بحيث يمكن التنبؤ بما سيؤول إليه، وهو إرادي^(٢٨).

بينما التغيير يشمل البناء الاجتماعي والنظام والأدوار والقيم وقواعد الضبط الاجتماعي، وقد يتصف بالثبات النسبي أو العكس، وقد يكون فجائياً سريعاً أو تدريجياً بطيئاً، ويتعلق بالجوانب الكمية أو الكيفية أو كليهما، ويتصل بالجانب المادي أو المعنوي أو كليهما، ويشير إلى الجوانب الكمية أو الكيفية أو كليهما، ولا يكون سيره مستقيماً -بالضرورة-، فقد يكون

(٢٣) التغيير الاجتماعي في منطقة حائل، الإنترنت، موقع: (المعرفة): (WWW.Marefa.Org).

(٢٤) المصدر.

(٢٥) المصدر.

(٢٦) المصدر.

(٢٧) المصدر.

(٢٨) المصدر.

تصاعدياً إلى الأمام أو نكوصياً إلى الخلف، وقد يكون تلقائياً عفويّاً أو إرادياً مخططاً^(٢٩).
فالنمو حالة من حالات التغيّر.

٦- التنمية الاجتماعية (Development Social):

هي « الجهود المنظمة التي تُبذل وفق تخطيط مرسوم للتنسيق بين الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة في وسط اجتماعي معيّن؛ بقصد تحقيق مستويات أعلى للدخل القومي والدخول الفردية، ومستويات أعلى للمعيشة والحياة الاجتماعية في نواحيها المختلفة كالتعليم والصحة والأسرة والشباب، ومن ثمّ الوصول إلى تحقيق أعلى مستوى ممكن من الرفاهية الاجتماعية^(٣٠)، أي « هي نوع من التغيّر المقصود أو المخطط له؛ بغرض الانتقال من حال غير مرغوبة إلى حال أفضل، فهي السير في اتجاه موجب ومرغوب، إذ... هي نوع من التغيير الناتج عن التحكم في عوامل التغيّر واتجاهاته، بينما التغيّر يعني الحال المتغيرة التي تحدث بفعل عمليات مخططة، وفي اتجاه مرغوب وموجب أو العكس^(٣١).
وبذلك فالتنمية نوع من أنواع التغيّر يختصّ بالتغيّر المنظم المقصود والمخطط له، دون التغيّر العشوائي العبثي أو العفوي التلقائي..

٧- الثورة الاجتماعية (Social Revolution):

الثورة هي: « التغيير المفاجئ السريع بعيد الأثر في الكيان الاجتماعي لتحطيم استمرار الأحوال القائمة في المجتمع، وذلك بإعادة تنظيم وبناء النظام الاجتماعي جذريّاً^(٣٢).
أما التغيّر الاجتماعي فقد يأخذ بالمنهج المفاجئ أو التدريجي، وقد يكون جذريّاً أو ترميميّاً، ومن ثمّ فالثورة نوع من أنواع التغيّر الاجتماعي.

٨- الإصلاح الاجتماعي (Social Reform):

وقد شاع في الأدبيات الحديثة تسمية التغيير الجزئي بـ(الإصلاح)، و(الإصلاح الاجتماعي)، و(العمل الإصلاحي)، و(العملية الإصلاحية)، وتسمية التغيير الكلي الشامل بـ (التغيير)، أو

(٢٩) المصدر.

(٣٠) الدكتور حسن سعيان، (اتجاهات التنمية في المجتمع العربي). مقال في كتاب (حلقة النهوض بعلم الاجتماع في الوطن العربي). ط١. الجزائر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. إدارة الثقافة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص ٢٢٥.

(٣١) التغيير الاجتماعي في منطقة حائل، الإنترنت، موقع: (المعرفة): (WWW.Marefa.Org).

(٣٢) جابر السكران، مقال (الثورة: تعريفها، مفهومها، نظرياتها). الإنترنت. موقع: (الجريدة):

(WWW.Aljaredah.Com).

(التغيير الجذري) أو (التغيير الشمولي)، ومن ثمّ فالفرق بينهما يكمن في المساحة التي يحتلها فعل التحويل والتبديل (كلية/ جزئية)، وفي عمق عملية التحويل (جذرية/ ترميمية).

٩- التخلف الاجتماعي (Social) Retrogression:

هو حركة المجتمع السلبية نحو الورا، وسيره نحو الأسوأ، بينما التغيير الاجتماعي قد يكون نحو الأسوأ، وقد يكون نحو الأفضل، ومن ثمّ فهو مفهوم أكثر شمولية وتعميماً، وبذلك يغدو التخلف نوعاً من أنواع التغيير الاجتماعي.

١٠- التراجع الاجتماعي (Social) Retardation:

وهي عملية سير اجتماعي نحو الورا، وتتضمن عملية الحركة القهقرية إلى صور نكوصية سابقة كان عليها المجتمع في زمن سابق، فهي عملية مقابلة للتقدم، وبذلك يكون التراجع -شأنه شأن التقدم- صورة من صور التغيير الاجتماعي.

١١- التردّي الاجتماعي (Social) Regression:

وهي عملية هوي وسقوط وهبوط وانحدار من أعلى إلى أسفل، وهي تفترض كون المجتمع في صورة (أعلى)، ثم الانحدار والتدهور والانحطاط، ولا تعني كلمة (أعلى) بالضرورة كونه في مستوى إيجابي، وإنما هي مقارنة ونسبة تحكي التفاضل بين مستويين، يشهد المجتمع في الصورة السابقة له مستوى أفضل مما يؤول إليه حاله، وقد تكون تلك الصورة السابقة (عالية فاضلة)، يتردى المجتمع بعدها إلى أسفل، أو تكون صورة (سافلة متردية)، ثم يتردى إلى ما هو أشدّ منها. أما التغيير الاجتماعي فقد يكون تردّيًا وانحدارًا، وقد يكون تسامياً وارتفاعاً، أي أنّه أعم من التردّي.

وهكذا.. فكلّ واحد من هذه المصطلحات الأحد عشر يرسم حالة وشكلاً من أشكال التغيير الاجتماعي، لكنّه ليس مصطلحاً عاماً شاملاً يساوق معنى (التغيير الاجتماعي)، ويحكي سعته وشموله.

خصائص التغيير الاجتماعي

ومما سبق نستطيع أن نتعرّف على أهم خصائص التغيير الاجتماعي، ومنها:

١- ظاهرة عامة:

فالتغيير الاجتماعي ظاهرة تحدث في قطاع عريض من أفراد المجتمع، ولدى فئات واسعة منه، وتتصف بالانتشار والتوسع، ولا تقتصر على حالات محدودة في بعض الأفراد أو الجماعات.

٢- يصيب البناء الاجتماعي:

فهو تحول في بنية المجتمع، لا بنية فرد، ولا يُقال ل تحول حصل لدى شخص أو أشخاص قلة أنه تعيّر اجتماعي.

٣- يقاس بفترة زمنية، حتى يمكن معرفته وتقويم آثاره:

فمصر (الزمن) معيار هام في كشف ما يحصل في المجتمع، فقد نشهد مجتمعاً ما.. وهو مجتمع أمي، أو زراعي، أو تستفحل فيه ظاهرة القتل، أو لا يعرف (الإنترنت)، ونشهد في فترة زمنية أخرى متعلماً يتأبط أبناءه شهاداتهم الجامعية، تسكنه الصناعة، وينشر عليه التسامح جناحه، وتستقر (الإنترنت) في عمق تقاناته التواصلية والمعرفية.

٤- الثبات النسبي (الديمومة والاستمرار):

أي أنّ التغير الحاصل فيه ليس مؤقتاً أو عرضياً أو سريع الزوال، وإنما يستقر مدة من الزمن بحيث يبدو ذلك فيه ملمحاً بارزاً.

٥- الإيجاب والسلب:

ومن خصائص التغير الاجتماعي أنه قد يكون إيجابياً (تقدماً وازدهاراً)، وقد يكون سلبياً (نكوصاً وانحداراً)، ولا يختصّ التغير الاجتماعي بالإيجاب فقط، أو بالسلب فقط.

٦- التلقائية والقصد:

فالتغير الاجتماعي قد يحدث بشكل تلقائي وعفوي، أو بشكل مقصود ومخطط.

التغير والتغير

تشير الهيئة اللغوية (تغير) الواردة على وزن (تفعل) إلى تبدل وتحول وتحرك (وانتقال ذاتي)، فحين نقول: (التغير الاجتماعي)، فإنّ هذا المركب الوصفي يوصي إلى تحقق أمر حصولي قد يكون عفويّاً أو تلقائياً، بينما الهيئة اللغوية (تغيير) على وزن (تفعل) تشير إلى صورة غيرية، فحين نقول: (التغيير الاجتماعي)، فإنّ هذا المركب الوصفي يتحدث عن أمر عملي تحصيلي، أي يستحضر في وعيه فعلاً يقوم به أحد أو جماعة لإحداث التبدل والتحول والنقل من حالة إلى حالة، فهو تبديل وتحويل وتحريك (ونقل غيري)، فهو عملية قصدية، وليست عملية عفوية أو تلقائية، ويظهر فيها طرفان

أحدهما القائم بالفعل والتغيير (الفاعل، المغيّر)، وثانيهما: الجهة التي تجري عليها عملية التغيير (المنفعل، المغيّر).

ولعلّ هذا أهم المبررات لعنونة هذه الدراسة بـ(معوقات التغيير الاجتماعي)، بدلاً من (معوقات التغيّر الاجتماعي)؛ لأننا نريد أن نقول: إنّ المجتمع قد يشهد عملية تغيير قصدية تسعى لإحداث التبدل والتحول فيه، لكن تقف في سبيلها أحجار تصد تلك العملية، تمثل معوقات لها.

مواقف الناس تجاه التغيير الاجتماعي

يمكن أن نصنّف مواقف الناس تجاه التغيير إلى ثلاثة:

١- الموقف المؤيد (الإيجابي):

وهو موقف يؤمن بالتغيير، ويتقبّله، ويدعمه، ويقوم بالإسهام الفعلي فيه، وتمثله المجتمعات التي تتقبل التغيير قيمةً وفكراً وثقافةً ومنهجاً وطريقةً حياة، وتقوم بإحلال سبل التغيير فيها، وإعادة ترتيب أوراقها وفق الشكل المناسب للتغيير الجديد.

٢- الموقف المعارض (السلبى):

وهو موقف يؤمن بعدم التغيير، أو لا يؤمن بالتغيير، ومن ثمّ يعارضه، ويواجهه، ويشحذ قواه للوقوف في وجهه، وإعاقة العملية التغييرية، أو إجهاضها أو قتلها. وتمثله المجتمعات التي تعادي التغيير سواء في الجانب القيمي، أو التقني، أو غير ذلك.. كما عارض البعض القطار في أول ابتكاره؛ مدعياً أنّه يفسد الطبيعة، وبسرعته يحرم الإنسان من فرصة التأمل فيها، والتفاعل مع جمالها الأخاذ.

٣- الموقف اللامبالي (السكوني):

وهو موقف من لا يعنيه تحقيق التغيير ونجاحه، ولا بقاء الصورة المجتمعية المتحققة أو زوالها، ومن ثمّ يقف موقف المتفرج الذي يحمل شعار (الوقوف على التلّ أسلم!!). وتمثله القطاعات الاجتماعية التي لا تحمل همّ المسؤولية والتغيير.

المواقف الثلاثة في القرآن الكريم

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ

الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٣٣﴾ .

فقد طلب نبي الله موسى (عليه السلام) من بني إسرائيل تغيير وضعهم الذي يقتات الشتات والضياع في الأرض بالدخول إلى الأرض المقدسة، فانقسموا إلى ثلاث فئات تجسد المواقف الثلاثة تجاه التغيير:

١- فئة تريد تحقيق التغيير الاجتماعي لمجتمع بني إسرائيل، والانتقال به إلى مرحلة الاستقرار في الأرض المقدسة، وهذه الفئة يقودها النبي موسى (عليه السلام)، وأخوه هارون (عليه السلام)، ويشاركهما فيها رجلان واعيان مستلزمات التغيير ومتطلباته، ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

٢- وفئة تقف ضد التغيير، وتفضل العيش في الشتات على المواجهة المسلحة للقوم الجبارين، المواجهة التي قد تكلفها خوض غمار الحرب وتقديم القتلى، وتريد أكل ثمرات التغيير دون الإسهام في عملياته واجتراح مشاقها وآلامها ﴿وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ .

٣- وفي الختام تحولت الفئة المعارضة للتغيير إلى فئة سكونية خاملة، يطيب لها مشاهدة المسرح دون السعي لتقديم أي فعل فيه، ومع أنها تتوق إلى التغيير، لكنها تكل عملية الحراك الاجتماعي إلى الغيب، بدلاً من الفعل البشري الشهودي ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ .

وإذا تحولت هذه المواقف الثلاثة إلى عمل، فإن الموقف الأول (المؤيد) سيأخذ بسبل الدعم لإحداث التغيير، بينما سيشرع الموقف الثاني (المعارض) إلى التسلح بسبل الصّد والمواجهة والإعاقة (صنع المعوقات لعملية التغيير)؛ لإبقاء المتحقق المجتمعي، وواد عملية التغيير، في حين سيكتفي الثالث (اللامبالي) بمشاهدة الأحداث والمجريات!!

وضمن وجهة النظر القرآنية فإنّ مآل هذه المواقف الثلاثة يصبّ في خندقين فحسب: إما الوقوف مع التغيير، وإما ضده؛ لأنّ الموقف السكوني يخذل عملية التغيير، ويصبّ في خدمة المعارض لها، ويترك (المؤيد) في حلبة الصراع مع (المعارض) دون أن يقدم له أيّ معونة، مكتفياً بالتمرّج على عملية المصارعة، وهذا يفسّر لنا النهاية الدقيقة التي خُتمت بها الآيات التي تكلمت عن قصة تحريم الصيد على بني إسرائيل في يوم السبت:

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ النَّجْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يَقْتُلُونَ لِأَتْيِهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٤).

ففي خاتمة المطاف هناك نهايتان فقط:

ألف- النجاة للذين ينهون.

باء- العذاب البئيس للذين ظلموا.

فأين توارى أصحاب الموقف الثالث (السكونيون) عن المسرح؟!

لا شك في أنّ هؤلاء انخرطوا نتيجة ضمن الذين صُب عليهم العذاب البئيس، أو ما هو أشد منه!!

ويفسر انتهاء المواقف الثلاثة إلى موقفين حديث آخر عن تجربة أخرى في المسرح النبوي، حصلت هذه المرة في قوم شعيب (عليه السلام)، حيث «أوحى الله -عزّ وجلّ- إلى شعيب النبي (عليه السلام): إني معذب من قومك مئة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم!!، فقال (عليه السلام): يا ربّ، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟!، فأوحى الله -عزّ وجلّ-: إليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يفضبوا لفضبي» (٣٥).

معوّقات التغيير الاجتماعي

هناك معوّقات كثيرة تقف في وجه حركة التغيير الاجتماعي، منها:

١- رفض قيم التغيير:

فالتغيير يحمل في طياته قيماً وأخلاقيات منها: تجاوز القديم المتحقق، والمجيء بالجديد.

وإلى جانب وجود أشخاص ومجتمعات يتقبلون عملية التغيير والحركة (المجتمعات الديناميكية)، وينزعون إلى الجديد، يقف أشخاص آخرون ومجتمعات أخرى ترغب في الثبات والاستقرار، وتخاف من الجديد، وتنزع إلى العكوف على القديم المألوف، وتقف في وجه التغيير وتحاربه، أو تقف في وجه المغيّر وتقاومه، وتلك طبيعة (المجتمعات الاستاتيكية).

(٣٤) سورة الأعراف/ ١٦٣ - ١٦٥.

(٣٥) الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ/ ٩٤١م). أصول الكافي. تحق: محمد جعفر شمس الدين. د. ط. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م ٥/ ٥٦، الباب ٥٥، ح ١ (عن الإمام الباقر (عليه السلام)).

والقاعدة العامة للسلوك الاجتماعي الذي واجه حركة التغيير التي قادها الأنبياء والمرسلون هي رفض التغيير ومواجهته: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(٣٦).

وإلى جانب كونها القاعدة العامة، فقد انحلت إلى مصاديق تطبيقية كثيرة وتوالى ظهوراتها في حلقات التغيير النبوي، واقفة كسد منبع في سبيل التغيير الذي يستهدفه: فقد رفض قوم نوح فكره التغيير، ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٣٧).

كما رفض قوم هود دعوته، وفضلوا أن يعضوا بناواجذهم على انتمائهم العقدي للمحافظة عليه: ﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا اجِثْنَا لَنُؤْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٣٨).

ومن لدن نوح أول الأنبياء إلى خاتمهم الأكرم محمد ﷺ يستمر هذا السلوك الراض للتغيير الاجتماعي - لاسيما في الصورة العقدية -، فتعود الكثرة من جديد في مجتمع قريش الذي تغطرس، ورفض الإسلام وكتابه المنزل، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَننَّم لُكْنَا مُؤْمِنِينَ ﴾^(٣٩).

ويطلق البعض على البقاء على القيم القديمة ورفض الجديدة - ولو كانت سماوية أو متجانسة مع العقل والفضيلة - اسم (الرجعية)؛ لأنها دعوة للرجوع إلى الخلف، وعدم التطلع والإقدام إلى الأمام، والتهيب من الخطو نحوه.

٢- النمطية:

تمثل العادات الجارية والمستحكمة في المجتمع دور المؤلف الاجتماعي الذي يرتكن إليه في مواجهة الجديد النابت، والتغيير المرتجى، فالفعل التكراري خلق له قبولا عاما في الذهنية الاجتماعية، وأمسى معهودا غير مستنكر لديها، ومن ثم تتمسك كثير من المجتمعات بالفكر والفعل السائدين، وتتجمد عليهما؛ للحيلولة دون التغيير بالجديد، وتميل هذه المجتمعات إلى دفع المؤلف.

وتزداد ضراوة هذه النمطية والجمود كلما استهدفت عملية التغيير الاجتماعي العادات

(٣٦) سورة سبأ/ ٣٤.

(٣٧) سورة هود/ ٣٢.

(٣٨) سورة الأحقاف/ ٢١ - ٢٢.

(٣٩) سورة سبأ/ ٣١.

التكرارية المتصلة بالوشائج القريبة التي تمثل شيئاً من الذات، فالآباء الذين يمثل الأبناء الامتداد النسبي والاجتماعي لهم تستطيل عاداتهم إلى أطوار شاهقة ينافح الأبناء دون اجتثاثها من المجتمع، فيما يخلق (الألفة الأبائية) لما كانوا عليه، والرفض لحركة التغيير التي تستهدف إبداله، وإحلال آخر مكانه.
وتتبدى هذه النمطية في صورتين بارزتين، هما:

ألف- نمطية الفكر (اتباع الفكر السائد):

وفي هذه الصورة يتم اعتناق الفكر المألوف السائد في المجتمع، ورفض الفكر الجديد ومفاهيمه ورؤاه، الأمر الذي حدا بمجتمعات الأنبياء أن تعانق مألوفها الفكري الذي استقرّ في العقلية العامة لها وفي عقلها العام ومخيالها الجمعي، ورفض الفكر الداعي إلى التجديد والتغيير، ولو كان آتياً من الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٤٠)، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٤١).

وبهذا تكون السلطة المعرفية والقيمية الراكزة في المجتمع ولدى الآباء هي المرجعية التي يتم الاحتكام لها لتقييم الجديد والحكم عليه: قبولاً أو رفضاً، وحيث إنه جديد مخالف للنسق المألوف، فسيكون نصيبه الرفض، لا لشيء إلا لأنه مختلف عن الفكر المرجعي.
بينما تسعى روح الرسالات السماوية إلى الاحتكام إلى الحق واتباعه ولو خالف المألوف الاجتماعي والأبوي (سلطة المجتمع والآباء): ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤٢)، ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٤٣).

باء- نمطية الفعل (اتباع الفعل السائد):

وهنا يتم اعتناق الفعل المألوف السائد، ويتم تبني السلوك العملي المعهود في المجتمع. وفي المشهد التاريخي كانت هذه النمطية في الفعل سلوكاً راسخاً في مجتمعات الأنبياء واجهت به مساعيهم التغييرية: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ

(٤٠) سورة البقرة / ١٧٠.

(٤١) سورة المائدة / ١٠٤.

(٤٢) سورة القصص / ٤٩.

(٤٣) سورة الزمر / ١٧ - ١٨.

مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٤٤﴾، ﴿٤٥﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٤٥﴾.

و حين جاء النبي إبراهيم عليه السلام بالحجج والبراهين الدامغة على بطلان عبادة الأصنام، لم يكن لسان الرد لديهم قادراً على المواجهة البرهانية، فكان المبرر المحرّك للرفض لديهم هو العكوف على الفعل الأبوي وتقديسه، وتقديمه على الحجة والبرهان والمنطق العلمي: ﴿وَإِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاقِبِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾.

وتصل درجة الاقتناع بالفعل المألوف إلى حدّ إصاق تهمة الكذب بمن يعارضه؛ لأنّ تجذر الفعل في السلوك الاجتماعي أعطاه صفة الصدق والتقدير التي تنظر إليه بوصفه ثابتاً لا يمكن مناقشته، فضلاً عن استبداله: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٧﴾.

يقول السيّد محمد الشيرازي: «التغيير قد يوجب تحطيم امتياز أصحاب الامتيازات؛ لذا يخاف الراكدون من إجازة الجديد؛ لأنّه يفتح الباب على جديد آخر مما يؤدي إلى تحطيم المجتمع - حسب زعمهم-، فيقف الإنسان أمام التجديد أحياناً خوفاً من تحطم ما اعتاده» (٤٨).

٣- رهن التغيير بمثالية المخلص:

تتبنى الحكمة الإلهية انتماء عملية التغيير الاجتماعي إلى البشر، وانطلاقها من البشر، بدلاً من إشادة أركانها على عناصر غيبية أو قيام عناصر فوق بشرية بها (كالملائكة)، وهذا لا يعني القطيعة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وعدم تعاضده معه، وتقديمه الخدمات والضمانات له، لكنّه -ضمن الحكمة الإلهية- ليس بديلاً عنه، وإنّما هو داعم ومساند. غير أنّ بعضاً من المجتمعات تقف في وجه هذا الشرط الموضوعي في السنة الإلهية الاجتماعية، وتتطلب انتماء عملية التغيير الاجتماعي إلى الخارق الإنساني، أو إلى الخارق

(٤٤) سورة الزخرف/ ٢٣ - ٢٥.

(٤٥) سورة الزخرف/ ٢٢.

(٤٦) سورة الشعراء/ ٦٩ - ٧٧.

(٤٧) سورة الأعراف/ ٧٠.

(٤٨) السيّد محمد الشيرازي، الفقه الاجتماع/ ٤١٥.

فوق الإنساني، وعدم قبول قيام البشر العاديين بها.
ومن ثم يرهن هؤلاء عملية التغيير الاجتماعية المقبولة لديهم بالمغيّر المثالي، لا المغيّر العادي، ويجعلون ذلك شرطاً أساسياً في قبول عملية التغيير.
ومن شروط المخلص المثالي التي أبدتها بعض المجتمعات:

ألف- الوفرة المالية:

فالغيّر لا بدّ أن يكون ذا مال وفير، ويسجد بريق الذهب والفضة تحت أقدامه، ولا يصح أن يكون المغيّر الاجتماعي ممن يرتدي الفقر جلباباً: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾^(٤٩).

وفي هذه الآية يتعانق في المنطق الفرعوني شرطان للمغيّر المثالي هما: الوفرة المالية، وإسهام ما فوق البشري (الملائكة) معه في العملية التغييرية!!

وكم تاق بنو إسرائيل في الشتات إلى إلقاء عبثه عن كاهلهم، وطلبوا من أحد أنبيائهم أن يختار لهم ملكاً يقاتلون بين يديه، لكنهم حين وجدوا ذلك الملك المصطفى فقيراً مالياً، تضاءلت كل مميزاتة القيادية كالعلم والقوة البدنية في أعينهم، وشخّ فيها وهج المال وبريق النضار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّنَا أَتَعْتُنَا مَلِكًا نُّقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَتَى يَكُونُ لَهُ أَمْلُكٌ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥٠).

باء- القدرة البيانية:

والقدرة البيانية لدى المغيّر لا بدّ أن تكون خارقة، فهو يحتاج إلى الكلام الدبلوماسي الآخذ بمجامع القلوب لتأييده، والحذر من خلق الخصوم، وفوق ذلك يحتاج إلى الكلام السحري الذي يستبي قلب سامعه، ويشلّ إرادة الممانعة عنده، فلا يجد في نفسه إلا الإذعان والتسليم والانقياد: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

(٤٩) سورة الزخرف/ ٥١ - ٥٣.

(٥٠) سورة البقرة/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

جيم- الجاه والمكانة:

وإذا انتمى المال إلى شرط مادي مطلوب لدى هؤلاء في المغير الاجتماعي، فهناك شرط آخر معنوي مطلوب إلى جانبه، هو الوجاهة والمكانة الاجتماعية المرموقة، وحين اختار الله نبيه محمداً ﷺ من وسط الفقراء والرعاة لحمل أمانة الرسالة، وأنزل عليه خاتمة كتبه المقدسة، ولم يختره من بين أغنياء العرب ووجهائهم، زمجر عند الجاهليين دوي هائل، وطفقوا يتساءلون: لماذا اختاره الله من بين الناس العاديين ولم يختره من بين عظماء مكة أو الطائف؟ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ ﴾^(٥١).

وينقل الإمام علي الهادي (عليه السلام) أنّ أبا جهل طلب من عبد الله بن أبي أمية المخزومي أن يجادل النبي محمداً ﷺ، فأتى إليه، وقال له: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ ﴾، فأجابه النبي ﷺ: « وأما قولك: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ ﴾: الوليد بن المغيرة بمكة، أو عروة بن مسعود بالطائف، فإنّ الله -تعالى- ليس يستعظم مال الدنيا كما تستعظمه أنت، ولا خطر له عنده كما كان له عندك، بل لو كانت الدنيا عنده تعدل جناح بعوضة لما سقى كافراً به مخالفاً له شربة ماء، وليس قسمة رحمة الله إليك، بل الله القاسم للرحمة، والفاعل لما يشاء في عبده وإمائه، وليس هو -عز وجل- ممن يخاف أحداً كما تخافه ماله أو لعاله؛ فتعرفه بالنبوة لذلك، ولا ممن يطمع في أحد في ماله وحاله كما تطمع؛ فتخصه بالنبوة لذلك، ولا ممن يحبّ أحداً محبة الهوى كما تحب؛ فتقدم من لا يستحق التقديم، وإنما معاملته بالعدل، فلا يؤثر بأفضل مراتب الدين وخلاله إلا الأفضل في طاعته، والأخذ في خدمته، وكذلك لا يؤخر في مراتب الدين وخلاله إلا أشدهم تباطؤاً عن طاعته، وإذا كان هذا صفته لم ينظر إلى مال ولا إلى حال، بل هذا المال والحال من فضله، وليس لأحد من عباده عليه ضربة لازب»^(٥٢).

دال- القدرات الخارقة:

كثيراً ما رُهنّت عملية التغيير لدى المجتمعات بالقدرات الخارقة لدى المغير (شخص استثنائي)، والقدرة على حشد المعجزات وتكديسها، وخرق عالم الأسباب الظاهرية، ورفض التغيير إن كان خلفه بشر غير خارق.

إنّهم باختصار يطلبون شخصاً أسطورياً قادماً من عالم الأسطورة والميثقة، شخصاً أشبه بأبناء (زيوس) في لسان الأساطير اليونانية عن آلهة الأولمب، لا شخصاً معجوناً

(٥١) سورة الزخرف/ ٣١.

(٥٢) السيّد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ / ١٦٩٦م). البرهان في تفسير القرآن. تقديم: الشيخ محمد مهدي الأصفى. تحق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثة. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة البعثة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م / ٨ / ٥٥٤.

من لحم ودم!!

ومن هذا المنطلق قال قوم النبي صالح (عليه السلام) له: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٥٣).

وأسرف مجتمع النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في المبالغات والشروط التعجيزية في المخلص المثالي وقدراته الخارقة: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْمًا أَوْ تَأْتِي بَالِلِهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾^(٥٤).

ولقد أبلغ الله الناس أنّ الرسل لا يملكون بأيديهم صنع المعجزات، وإنما ذاك مدد إلهي؛ لإنجاح الرسالة وإثبات صدق مدعيها، وليست للفرجة حتى تأتي (حسب الطلب)، ومتى ما أريدت: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ ﴾^(٥٥).

هاء- ليس من دائرة البشر:

ووصلت درجات السلم المبالغ أقصاها حين تجاوزا عتبة البشري الأسطوري الخارق إلى المطالبة بالمغيّر المنتمي لدائرة غير البشر، وطالبوا أن توكل عملية التغيير الاجتماعي البشري إلى ملائكة، وكأنّ البشرية -أساساً- شرط كافٍ لرفض التغيير، والإيمان بعدم قدرتها على التغيير والحراك الذي يتطلبه؛ لما تحمله البشرية من سمات المحدودية والعجز: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشِّوْنَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾^(٥٦).

وتعجب قوم نوح (عليه السلام) من مغيّر اجتماعي ينتمي إلى دائرتهم البشرية ويأكل ويشرب -كما يفعل سائر الناس-:

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَأَوْرَثْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾^(٥٧).

(٥٣) سورة الشعراء / ١٥٤.

(٥٤) سورة الإسراء / ٩٠-٩٣.

(٥٥) سورة الرعد / ٣٨.

(٥٦) سورة الإسراء / ٩٤ - ٩٥.

(٥٧) سورة المؤمنون / ٣١ - ٣٤.

وأعيد إنتاج وتدوير الفكرة نفسها في زمان النبي شعيب عليه السلام، فقال له قومه: ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نُظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٥٨).

يحصل هذا مع أنّ الأنبياء - من الناحية النظرية والمعرفية - أخبروا مجتمعاتهم أنّ النبي - أيّ نبي - يحمل في داخله جنبيتين: جنبية بشرية مثلهم، وجنبية اتصال بالوحي تميّزه عنهم، وأنّ الاستثناء إنّما جاء بالاستمداد من نمير السماء، لا من ناحية التركيب البشري، إلا أنّ ذلك لم يخفف من غلواء المبالغات الاجتماعية المجنحة التي لا تكتفي باشتراط العمل الخارق (المعجزة)، بل تتطلب العامل الخارق أيضاً: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٩).

وأعلم الله الجميع أنّ الرسل - كغيرهم من الناس - يتزوجون، ويشكلون أسراً وذرية: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (٦٠)، وأنهم يموتون كغيرهم ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ (٦١)، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (٦٢).

وقد أمر الله نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يوضح لقومه حقيقة كونه بشراً مثلهم، وأنّ ما يميّزه عليهم هو الوحي الإلهي: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ (٦٣)، ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (٦٤).

ويحصل - كذلك - مع أنّ الله - من الناحية التطبيقية والعملية - جعل جميع أنبيائه ورسله للبشر من دائرة البشر، وتسري عليهم طبيعة البشر العامة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (٦٥).

ويحصل - أيضاً - مع أنّ الله أخبر الناس بالسنة العامة لديه، وهي أنّه يختار الرسل من جنس المرسل إليهم؛ ليكون أسهل في التواصل، وأنتم في الحجة: فيبعث للبشر رسلاً من أبناء جلدتهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ (٦٦)، ﴿ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَعِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾.

(٥٨) سورة الشعراء/ ١٨٦.

(٥٩) سورة إبراهيم/ ١١.

(٦٠) سورة الرعد/ ٣٨.

(٦١) سورة الزمر/ ٣٠.

(٦٢) سورة الأنبياء/ ٣٤.

(٦٣) سورة الكهف/ ١١٠.

(٦٤) سورة الجمعة/ ٢.

(٦٥) سورة الفرقان/ ٢٠.

(٦٦) سورة الروم/ ٤٧.

من العوامل القوية التي تقف عائقاً في وجه التغيير الاجتماعي الرموز الاجتماعية الراسخة في المجتمع، والقيادات التي تتولى تحريك عجلته؛ لأنهم يعتقدون أنّ عملية التغيير الاجتماعي كما تستهدف تغيير المجتمع فإنها تستهدف تغيير الأدوار والمواقع الاجتماعية، وذلك يؤدي إلى الإطاحة بهم، وخسرانهم مناصبهم ووجاهتهم، كما يرون أنهم صمام الأمان للمجتمع، الصمام الذي عليه أن يحافظ على سلامة المجتمع وصلابته في وجه رياح التغيير. وتتواشج تلك المقولات الصادرة ممن يعيش في قمة الهرم الاجتماعي (الرموز، القيادات) مع مقولات أخرى تصدر من النخب الاجتماعية (الملا) تصبّ في ضرورة العكوف على النموذج المجتمعي المتحقق وعدم تغييره، كما تتعانق مع مقولات ثالثة تصدر من قاعدة الهرم الاجتماعي (الناس)، منها ضرورة طاعة الكبراء والرؤساء، وتعطيل عملية الفكر لصالح منتجهم الفكري؛ لأنهم الأعلم والأدرى والأنضج^(٦٧)، وبهذا تكون الزوايا الثلاث للمجتمع (الرمز، النخبة، القاعدة) قد تعاضدت لتقف معاً ضد التغيير.

ومن الرموز الاجتماعية التي تقف في سدة الهرم: الحاكم السياسي -كفرعون- الذي وقف ضد عملية التغيير التي قادها النبي موسى (عليه السلام)، وسوّق لهم أنّه يهديهم سبيل الرشاد: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٦٧). وظهر دور النخبة الاجتماعية (الملا) كثيراً في وجه حركة الأنبياء، ومن ذلك: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتِئِنَّ أَتْبَعُكُمْ شُعَيْباً إِن كُمْ إِذْآ لَحَاسِرُونَ﴾^(٦٨)، ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾^(٦٩).

وأما القاعدة ففي كثير من صورها تمثل التابع الساذج المطيع دون وعي: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم فَأَعْرِقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٧٠).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾^(٧١).

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا

(٦٧) سورة غافر/ ٢٩.

(٦٨) سورة الأعراف/ ٩٠.

(٦٩) سورة ص/ ٦.

(٧٠) سورة الزخرف/ ٥٤ - ٥٥.

(٧١) سورة الأحزاب/ ٦٤ - ٦٧.

أَنْحُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ .

وهذا يعني أنّ المثلث الاجتماعي اشترك في مواجهة التغيير، مع فروق في سبب المواجهة: هل هو سبب واع يريد الاحتفاظ بالمصالح (كما يظهر لدى القيادات والنخب)، أم هو سبب غير واع عملت فيه معاول الجهل والتجهيل والتفكير السطحي، وقادته التبعية العمياء، لكنّ الأسباب سواء أكانت واعية أم غير واعية؛ فإنّها تمثل عقبة كأداء في طريق التغيير الاجتماعي.

٥- الخشية من فقدان المواقع:

أشرنا قبل قليل إلى وجود اعتقاد اجتماعي راسخ أنّ عملية التغيير الاجتماعي كما تطال المجتمع، تسعى لخلخلة مكانة الرموز فيه، وتغيير المواقع والوجهات، وخسران الامتيازات، وبناء ذلك كلّه على قاعدة جديدة تتوافق مع حركة التغيير القادمة. وقد عمل هذا الشعور والاعتقاد على إذكاء الحرص على المصلحة الخاصة، وتقديم الفكر النفعي والشخصي، ومواجهة قوى التغيير بوصفها قوى تريد (التفضل على المجتمع)، وتسبب مركز القيادة فيه، وإزاحة الأعمدة الراسخة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ ﴿٧٣﴾ .

ممن تصدر خشية فقدان المواقع:

وقد فضّل القرآن الكريم الأشخاص والجهات التي تصدر منها هذه الخشية على فقدان الموقع، ومنها:

ألف- الحاكم (الرمز):

فالحاكم السياسي يخاف من عملية التغيير الاجتماعي؛ لأنّه يرى أنّها تستهدف اقتلعه من كرسيه، وإجلاس آخر عليه، وسلب الامتيازات المالية والمعنوية منه (السلطة والنفوذ)، ومن طرف آخر يملك الكثير من مقومات المواجهة وإعاقة التغيير، ومنها المال والإعلام والعسكر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ

(٧٢) سورة سبأ/ ٣١ - ٣٣ .

(٧٣) سورة المؤمنون/ ٢٣ - ٢٤ .

دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٧٤﴾.

باء- الفئة المتنفة (الملا):

والفئة المتنفة في المجتمع تستفيد من بقاء الصورة الاجتماعية التي تحافظ على مكانتها، وتقوم بعملية التنميط الاجتماعي والتصنيف الطبقي لمكونات المجتمع، وتفرضه بين (ملاً أعلى)، و(أراذل أسفلين)، وتقف ضد التحول الاجتماعي الذي يبذل المواقع، وهكذا تندلق المقولة من لسان قوم نوح (عليه السلام)، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّبِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٥﴾، و﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿٧٦﴾. كما تندلق من قوم شعيب الذين ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴿٧٧﴾.

جيم- الفئة المترفة:

وإلى جانب الفئة المتنفة (فيما ينتمي إلى جانب السلطة والصلاحيات) هناك فئة المترفين (المنتمية إلى التميز الاقتصادي والامتيازات)، وهي -أيضاً- تعادي عملية التغيير، وتقف ضدها؛ لأنها قد تجردها من حظوتها المالية التي قد تكون مال الناس والشعب حصلت عليه بالإنثرة والسلب والجشع: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّبِينَ ﴿٧٨﴾.

دال- المجتمع:

والمجتمع نفسه قد يخاف على فقدان شيء من موقعه، فيعتقد أنّ عملية التغيير الاجتماعي قد تأتي بخلخلة أمنية تؤدي إلى ملاحقة أبناء المجتمع إن اعتنقوا قيم التغيير ومقولاته، وقد صدح بهذا أناس في قوم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِئِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُّ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمَ نُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾.

(٧٤) سورة غافر/ ٢٦.

(٧٥) سورة هود/ ٢٧.

(٧٦) سورة الشعراء/ ١١١.

(٧٧) سورة هود/ ٩١.

(٧٨) سورة سبأ/ ٣٤ - ٣٥.

(٧٩) سورة القصص/ ٥٧.

الأمور والمواقع المخشي على فقداها:

وإذا كان ما سبق يمثل الجهات التي تقف ضد عملية التغيير خشية من فقدان المواقع والامتيازات، فإن القرآن الكريم سجل الأمور التي يخشى أولئك عليها، ومنها:

ألف- المال:

فهناك من يقف ضد عملية التغيير الاجتماعي؛ لخوفه أن تجرّده من الأموال التي حصل عليها، أو سرقها من خزينة الأمة، والترف المادي الذي يتقلب في بحبوحته. وهذا يصدر من الحكام والمحيطين بهم (كالوزراء والأمراء والبطانة)، الذين سرقوا وأوفر خيرات المجتمع، ويخافون أن تعيد عملية التغيير الحق إلى نصابه: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٨٠).
كما يصدر من المترفين في المجتمع: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَابُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾^(٨١).

باء- الجاه:

وكما يقلق البعض على المال والحظوة المادية، هناك من يقلق على الجاه والحظوة المعنوية التي سيخسرهما حينما يتساوى مع غيره، أو حين يقل مكانة عن غيره، ويتقلد المكانة السامية من كان يصنفهم بـ(الدون) و(الأراذل)، ويسمهم بالضعة: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَلَ عَلَيْكُمْ﴾. وقد جابه فرعون وملؤه نبي الله موسى وأخاه هارون، وفسروا عملية التغيير بأنها صراع زعامة ووجاهة، ورغبة من موسى وهارون في التزعم، و﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا كَمَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٨٢).

جيم- الدين:

ويخاف البعض من التغيير الاجتماعي في جانبه العقدي، وانتقال المجتمع إلى عقيدة جديدة مغايرة لعقيدة الأسلاف: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾^(٨٣)، ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا

(٨٠) سورة يونس / ٨٨.

(٨١) سورة هود / ٨٧.

(٨٢) سورة يونس / ٧٨.

(٨٣) سورة غافر / ٢٦.

جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٨٤﴾.

ولعلَّ خوف التبدل العقدي هو الموقع الأكبر الذي يُخشى عليه، ومن ثمَّ كان السبب الأكثر حضوراً في الآيات التي تحكي المواجهة بين المجتمعات وأنبياؤها - كآيات السابقة -، وكانت بعض المجتمعات تدخل في مساومات مادية ووجاهية مع المغيّرين فيها لتقدم لهم شيئاً من (المحفزات المادية والمعنوية) في سبيل الكفّ عن التغيير العقدي، كما فعل مجتمع النبي محمد ﷺ حين عرضوا عليه المال والسلطة والزواج من أجمل فتياتهم في سبيل ترك دعوته التغييرية.

دال - الأرض:

ومن المواقع التي يخشى البعض فقدانها خسران الأرض - كمكون اجتماعي -؛ لأن لا مجتمع من دون أرض يسكنها، وتراب يقيم عليه، ومن ثمَّ قال فرعون للنبي موسى ﷺ: ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٥﴾ ، وألب فرعون ملاًه، وعبأهم قائلاً: ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٨٦﴾ . أي أنّ فرعون يريد أن يقول: «إننا نعلم أنّ مسألة النبوة والدعوة إلى التوحيد، وإظهار هذه المعجزات تشكل بمجموعها خطة منسقة للانتصار علينا، وبالتالي إخراجنا مع الأقباط من أرض آباؤنا وأجدادنا، فليس هدفك الدعوة إلى التوحيد، ولا نجاة وتخليص بني إسرائيل، بل هدفك الوصول إلى الحكم والسيطرة على هذه الأرض وإخراج المعارضين... إنّ إثارة المشاعر الوطنية وحبّ الوطن في مثل هذه المواضع أمر مدروس بدقة كاملة؛ لأنّ أغلب الناس يحبّون أرضهم ووطنهم كحبّهم أنفسهم وأرواحهم، ولذلك جعلوا هذين الأمرين في مرتبة واحدة كما في بعض آيات القرآن: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴿٨٧﴾ (٨٨) .

٦ - سيادة فكر الشلل:

ومن العوائق أمام التغيير الاجتماعي سيادة فكر الشلل في المجتمع. إنّ المجتمع الذي تسكنه ثقافة الفعل والحيوية (الثقافة الحية)، يصبح مجتمعاً فاعلاً

(٨٤) سورة سبأ/ ٤٣.

(٨٥) سورة طه/ ٥٧.

(٨٦) سورة الأعراف/ ١١٠.

(٨٧) سورة النساء/ ٦٦.

(٨٨) الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. ط١. بيروت/ لبنان: مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ٢١ / ١٠ - ٢٢.

ديناميكياً، دأبه الحركة والفعل، والمجتمع الذي تخيّم عليه ثقافة السكون (الثقافة الميتة) أو ثقافة الشلل (الثقافة الميتة) لا تبرح تزرّقه بإبر التخدير والموت حتى تشله أو تقضي عليه!!
ومن ثمّ يرى القرآن الكريم أنّ منطلق عملية التغيير الاجتماعي منطلق إنساني، أي أنّها عملية تبدأ من الإنسان، ومن فكر إنساني فاعل، وحوار إنساني فاعل، وما لم تبدأ العملية من التغيير الداخلي المنطلق من الإنسان نفسه، فلن تتم عملية التغيير الخارجي، أي أنّ هناك عملية شرطية طرفها الفعلي الأول هو الإنسان، وطرفها الآخر هو الخارج الغيبي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٨٩).
وقد عرض القرآن الكريم لأنواع كثيرة من فكر الشلل والموت التي تعيق التغيير الاجتماعي نحو الأفضل، وتركس رأس المجتمع في مستنقع التخلف، ومنها:

ألف- الفكر النمطي:

تقدم أنّ هناك فكراً نمطياً لا يرى إلا الصورة المتحققة والنسق القائم حللاً وملاذاً، ولا يقبل تغيير السائد والمألوف الاجتماعي؛ إما لقداسة المتحقق، وإما لدنس المتوقع، وهي ما جعلت جان جاك روسو [١٧١٢ - ١٧٧٨م] الناقد للوضع السياسي الفرنسي زمن الحكم الملكي، والداعي لتطويره، وصاحب نظرية (العقد الاجتماعي)؛ يربعه مجرّد تصور فرنسا من دون ملك، لا لشيء إلا لأنّه ولد وترعرع والحكم الملكي مخيّم هناك!!^(٩٠).
والفكر النمطي يرى أنّ التغيير ممكن، لكنّه لا يريده، ولا يرحب به، ويقف ضده.

باء- الفكر التعجيزي:

تقدم في فقرة (مثالية المخلص) كيف أنّ هناك من يرهن التغيير بمغيّر مثالي معجز: بشري خارق، أو فوق بشري، ومن ثمّ يرى أنّ التغيير ضمن دائرته البشرية العادية غير ممكن، وبالأولى غير واقع، ونفي الإمكان يستلزم نفي الوقوع، وحتى يكون ممكناً ويقع يحتاج إلى مغيّر معجز.
وهنا أصبح مؤشر البوصلة يتذبذب بين طرفين متضادين: فالتغيير غير ممكن من البشر العاديين، لكنّه ممكن من البشر الخارقين، أو من كائنات فوق البشر.

جيم- الفكر الغيبي:

الفكر الغيبي يرى أنّ التغيير ممكن، لكنّه ليس قادماً من عالم البشر، عالم الفعل

(٨٩) سورة الرعد/ ١١.

(٩٠) السيّد الشهيد محمد باقر الصدر، (ت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م). بحوث إسلامية: بحث حول المهدي. ط٤. بيروت/ لبنان: دار الزهراء (عليها السلام)، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م / ٨٩.

الإنساني والأسباب والشهود، وإنما هو قادم من عالم الغيب والفعل الإلهي واللفظ الرباني.

ويسعى هذا الفكر إلى تضخيم الأمور، ومتطلبات القيام بالعملية التغييرية؛ لتبرير النكوص، وتسليية الذات:

لقد طالب فرعون نبي الله موسى عليه السلام أن تعينه الملائكة على إنجاز عملياته ورسالاته: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ ^(٩١).

وهذا ما تجلى مع قوم موسى عليه السلام، وحرّضهم على رفض دخول الأرض المقدسة المستلزم للحرب، ودفعهم إلى إيكال ذلك إلى الله وقدرته، ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ^(٩٢).

وهكذا يمتي بعض الناس نفوسهم أن يُنجح الله عملية التغيير وإزالة الطغاة والظالمين وحكمهم الجائر -مثلاً- بسكتة قلبية تعتصر قلوبهم، أو تحطم طائرة يحيل أجسامهم إلى رماد أو دخان تذرؤه الرياح، أو ضربة ناجزة من جناح جبريل، أو صيحة صاعقة ماحقة من إسرافيل!!

دال- الفكر القدري:

يقرّر القرآن أنّ الإنسان يملك الحرية والاختيار في الفعل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ ^(٩٣)، بينما يصرّ فكر الخنوع على غرس الفكر القدري الذي يتيح له قتل تأنيب الضمير الذي لا يفتر يسأله عن سبب التخلف، ويحثه على ضرورة الفعل والحراك، وبذلك يطمس وجدانه الذي لا ينفك عن مساءلته: لماذا لا تتحرّك؟، لماذا لا تفعل؟؛ فالفعل غير ممكن، والله -جلّ جلاله- شاء، ووفق هذا مضى علمه وحكمته ومشيبته!!: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاكُمْ مَّا لَكُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ^(٩٤)، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ^(٩٥).

فالفكر القدري لا يؤمن بالتغيير الاجتماعي عملاً -حتى لو آمن بقيم التغيير وأفكاره-؛ لأنّه يرى أنّ ذلك التغيير غير ممكن التحقيق على أرض الواقع، وأنّه (ليس في

(٩١) سورة الزخرف/ ٥٣.

(٩٢) سورة المائدة/ ٢٤.

(٩٣) سورة الشمس/ ٧-١٠.

(٩٤) سورة الزخرف/ ٢٠.

(٩٥) سورة الأنعام/ ١٤٨.

الإمكان أبدع مما كان) ^(٩٦)، و:

فسيان: التحرك والسكون جري قلم القضاء بما يكون
ويرزق في غشاوته الجنين جنون منك أن تسعى لرزق ^(٩٧)

ممن تصدر العوائق؟

حين نتساءل: ممن تصدر العوائق التي تقف حجر عثرة في طريق تدفق نهر التغيير الاجتماعي، فإننا يمكن أن نقف قرآنيًا، على العوائق التالية:

- الفرد:

فالإنسان -كفرد- سواء أكان رجلاً أم امرأة قد يقف سدًا منيعاً دون التغيير الاجتماعي، وقد اشترك النموذج الذكوري والأنوثة حائلين دون بلوغ التغيير كما في سورة المسد: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَأُمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ^(٩٨).

وذات يوم جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي محمد ﷺ، فقرأ النبي عليه شيئاً من القرآن، فتذوق بفطرته اللغوية جماله الأخاذ، واهتز لعذوبته، ورق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فألح عليه أن يقول في القرآن قولاً يُعلم قومه أنه منكر كاره له، فقال الوليد: « ما أقول فيه، فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم بجزء مني، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو ولا يُعلى. قال [أبو جهل]: والله، لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثره عن غيره» ^(٩٩)، فأنزل الله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَيَّنَّ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ

(٩٦) ألف جلال الدين السيوطي كتاباً أسماه (تشبيد الأركان في أن ليس في الإمكان أبدع مما كان)، نسب فيه هذه الجملة للشيخ أبي حامد الغزالي، وقد سطر السيوطي كتابه هذا للدفاع عن هذه المقولة، وقال في بدايته: « فقد نُقل عن الإمام حجة الإسلام ولي الله أبي حامد الغزال رحمته الله أنه قال: (ليس في الإمكان أبدع مما كان)»، انظر: تشبيد الأركان في أن ليس في الإمكان أبدع مما كان/ ٤٧٤، الملحق بكتاب (إحياء علوم الدين للغزالي)، انظر موقع: الغزالي، الإنترنت (WWW.Ghazali.Org).

(٩٧) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين. ضبط الشيخ محمد الدالي بلطة. دط. بيروت وصيدا/ لبنان: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ٤/ ٣٦٣. ويُنسب هذان البيتان لأبي الخير الواسطي، ولابن الرومي.

(٩٨) سورة المسد/ ١ - ٥.

(٩٩) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري). ضبط وتعليق: محمود شاكر. ط١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ٢٩/ ١٨٦.

تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَفَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَفَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿١٠٠﴾.

٢- الجماعة (النخبة):

وكما يصدر العائق التغييري من الفرد، يصدر - أيضاً - من الجماعة التي قد تتمثل في دوائر منها:

ألف- النخبة السياسية (الوزراء، المستشارون، الحاشية):

وصدور العائق من النخبة السياسية يترك أثراً بالغاً في إعاقة التغيير لاسيما في المسار السياسي، وأمور الحكم والدولة.

يقول الله تعالى عن الملكة بلقيس وما دار بينها وبين بطانتها السياسية: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفُنُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿١٠١﴾.

فهذا الملأ السياسي في دولة بلقيس كاد يقود خطى الدولة إلى الحرب بسعيه الحثيث لبيان الجاهزية لخوض معترك الحرب، وإعاقة التغيير النبوي القادم مع نبي الله سليمان (عليه السلام)، لولا حنكة الحاكم الذي لم يصغ لقرع طبول الحرب، بل.. أصغى لحكمة العقل.

باء- النخبة الاجتماعية (الملأ، عليّة القوم):

لقد وقف الملأ على الدوام ضد عملية التغيير الاجتماعي والتغيير النبوي:

- فقال الله تعالى عن قوم النبي نوح (عليه السلام): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٠٢﴾.

- وقال عن قوم النبي صالح (عليه السلام): ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ

(١٠٠) سورة المدثر/ ١١ - ٢٥.

(١٠١) سورة النمل/ ٢٩ - ٣٣.

(١٠٢) سورة هود/ ٢٥ - ٢٧.

* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٠٣﴾ .
 - وقال عن قوم النبي شعيب عليه السلام: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُوذَنَّ فِي مَلِئْنَا قَالَ أُولَئِكَ كَارِهِينَ * *
 وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتِئِنَّ أَتْبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّا لَنَحَسِرُونَ ﴿١٠٤﴾ .
 - وقال عن قوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوهُوا عَذَابٍ ﴿١٠٥﴾ .

جيم- النخبة الدينية (أرباب المصالح الدينية، عليا الهرم الديني):

وإذا كان الملأ ذوي مصالح سياسية واجتماعية فذاك لا يعني أن العائق التغييرية لا يصدر إلا عن المصالح السياسية والاجتماعية، فقد يصدر من بعض ذوي المصالح الدينية أيضاً.

فكما يمكن المتاجرة بالسلطة السياسية والوجاهة الاجتماعية يمكن المتاجرة بالقيم الدينية والتكسب على البسطاء من خلالها، الأمر الذي يستفحل حين تجتمع عقلية دينية انتهازية مآكرة، مع عقلية اجتماعية ساذجة، فتبتكر الأولى طرق الخداع، وتتقبل الثانية ذلك بوصفه دينياً يُدان الله به!!

ومن هنا يقول الله تعالى عن الأخبار والرهبان، ودورهم في الصدود الاجتماعي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠٦﴾ .

٣- المجتمع:

والمجتمع - كذلك - يمكن أن يلعب دوراً هاماً في إعاقه التغيير الاجتماعي؛ بما يقوم به من أمور تعيق الحراك الاجتماعي، ومن ذلك:

(١٠٣) سورة الأعراف / ٧٥ - ٧٦ .

(١٠٤) سورة الأعراف / ٨٨ - ٩٠ .

(١٠٥) سورة ص / ٤ - ٨ .

(١٠٦) سورة التوبة / ٣٤ .

ألف- التكذيب والرفض:

تبدأ أولى خطوات الإعاقة المجتمعية للتغيير برفض التغيير وقيمه، وقد تجلت هذه الإعاقة في نموذجها التاريخي في تكذيب المغيّرين (كالأنبياء)، يقول الله عن قوم نوح **﴿عَلَيْهِمُ السَّلَاطَةُ﴾**: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾** (١٠٧).

ويقول عن قوم لوط: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾** (١٠٨). **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾** (١٠٩).
فهنا يضحى الصدود شخصياً..

باء- صدّ الناس عن اتباع التغيير وقيمه:

ثم ترتقي وتصل في الخطوة الثانية إلى الوقوف حائلاً بين القيم التغييرية وبين الناس، وتحول دون إيمانهم بها، واعتناقها.

فالكافرون -مثلاً- لا يكتفون بعدم الإيمان، ورفض اعتناق قيم الدين والتغيير، بل.. يصدون الناس عن اعتناقها والإيمان بها، أي أنّهم لا يكتفون بالصدود الشخصي الذي يطالهم كذوات وأفراد، بل يلجؤون إلى الصدّ الاجتماعي الذي يطأ بميسمه رقاب المجتمع: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْإِحَادِ يُظْلَمْ نُذِقْهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ﴾** (١١٠)، **﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾** (١١١).

جيم- مقاومة المغيّرين ومواجهتهم:

وتصل في الدرجة الثالثة إلى الحظر على المغيّر نفسه، ومواجهته. ينقل الله -سبحانه وتعالى- تهديد مجتمعات الأنبياء لأنبيائها، واستعمالها (سياسية التلويح بالعصا الغليظة) في وجوههم: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ نَتَعَوَّدَنَّ فِيهَا مَلْتَنَا فَاتَّخَذُوا إِلَهُهُمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾** (١١٢).

(١٠٧) سورة الشعراء/ ١٠٥، ١١٦.

(١٠٨) سورة الشعراء/ ١٦٠.

(١٠٩) سورة النساء/ ٦١.

(١١٠) سورة الحج/ ٢٥.

(١١١) سورة هود/ ١٩.

(١١٢) سورة إبراهيم/ ١٣.

ويقول عن قوم إبراهيم (عليه السلام): ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ (١١٣).

ويقول على لسان فرعون مهدداً السحرة بعد إيمانهم: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَا صَلْبَانَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (١١٤).

كما ينقل -سبحانه- تنفيذ تلك التهديدات التي تصل إلى حد القتل والتصفية: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١١٥)، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١١٦).

٤- الدولة:

وإذا صدر ذلك المنع والتعويق من الفرد والجهة والمجتمع، فإنّ الدول -وهي تعد نفسها الراحية للمجتمع- قد تقف حائلاً دون التغيير.

قد يبدأ ذلك من رأس أركان الدولة (الحاكم) الذي يخاف على منصبه، ويجيش ملأه (النخبة) كالوزراء والمتنفذين، وألته الإعلامية، وقوته وبطشه، ضد المغير: ﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسَلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * * قَالَ لَيْتَنِي أَخَذْتُ إِلَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تَوْكُ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ (١١٧).

وقد تبدأ المبادرة من الملأ مستغلة قربها من رأس الهرم (الحاكم)؛ لتحرّضه على اتخاذ قرار استئصالي حاسم ضد المغيرين بذريعة (وَأد الفتنة، واجتثاث الفساد)، ومن الإجراءات المراد اتخاذها (الإذلال، النفي، السجن، التمثيل، القتل): ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ

(١١٣) سورة العنكبوت/ ٢٤.

(١١٤) سورة طه/ ٧١.

(١١٥) سورة الأنبياء/ ٦٩.

(١١٦) سورة النساء/ ١٥٥.

(١١٧) سورة الشعراء/ ١٥ - ١٨، ٢٧، ٢٩، ٣٤ - ٣٧، ٥٣ - ٥٦.

بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تَوَكُّبُ كُلُّ سَاحِرٍ عَلِيمٌ * * وَالْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ * لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَتَقْتُلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١١٨﴾.

من المجموعتين السابقتين من الآيات تبرز مجموعة من السبل التي تقوم بها الدولة لمواجهة التغيير، منها:

ألف- المن:

فهي تمن على أبنائها أنها ربتهم، وأطعمتهم، ودرّستهم، ووظفتهم، متجاهلة أن ذلك إنما هو بعض خيراتهم التي سرقتها منهم، واستأثرت بها وتقلبت في بذخ نعيمها، وكأنها تنفق عليهم من خزيتها الشخصية، ومن المال الشخصي الذي اكتسبه الحاكم وذووه عبر اشتغالهم في الأعمال الشاقة وكدح الجبين:

- ﴿ أَلَمْ نُزَيِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾.

باء- التهديد والوعيد:

والدولة وأجهزتها تشرع سلاح التهديد بالإذلال والسجن والنفي والتمثيل والقتل لمن يختلف معها:

- ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾.
- ﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.
- ﴿ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾.

جيم- التعبئة الإعلامية:

وهنا تقوم الدولة بالتعبئة الإعلامية، وصبّ أنها الإعلامية لتشويه سمعة الخصوم، وتصفيتهم معنويًا (قتل الشخصية)، في سعي منها لمسخ شخصيتهم ودعوتهم، وإقامة

الحواجز النفسية المانعة من التأثر بهم:

- ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ .
- ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ .
- ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .
- ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ .
- ﴿ أَنْذَرْتُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْتَكُ ﴾ .
- ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ .

دال- التعبئة الاجتماعية:

وتقوم الدولة بتعبئة الرأي العام الاجتماعي ضد المغيِّرين، عبر استثارة وجدانهم، والإيحاء لهم بأنهم أمام خطر داهم يستهدفهم:

- ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ .
- ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

هاء- المواجهة والصدام:

وإذا فشلت الدولة وأجهزة أعلامها وقمعها من التهديد النفسي ومسح الشخصية؛ تلجأ إلى ممارسة العنف ضد أبنائها عبر تنفيذ السجن، والتكيل، والقتل (التصفية الجسدية):

- ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١١٩).
- ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأُوْتَادِ ﴾ (١٢٠).

وهكذا عوقب النبي إبراهيم بالحرق، كما حُرق أصحاب الأخدود، ولبث النبي يوسف في السجن سنين، وتمت تصفية الكثير من الأنبياء والمرسلين □

(١١٩) سورة القصص/ ٤.

(١٢٠) سورة الفجر/ ١٠.